مرض ابن خلدون
وتأثيره على تآليفه

الدكتور محمود الجليلي

لصحة الناس تأثير كبير في حياتهم ، ويكون ذلك واضحاً فيمن لديهم امكانية تسجيل خواطرهم مثل الكتاب والشعراء ، خاصة إذا كان المرض من النوع الذي لا يسلّد الحواس ولا يقلل من قابلية التفكير والانتاج العقلي، وإذا كان من النوع المؤلم والمزمن الذي يبقى سنوات عديدة .

ولقد وجدنا في نسخة مخطوطة لدينا من كتاب المقريزي (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة) والتي نشرنا وصفها وترجمة ابن خلدون منها في محل آخر من مجلة المجمع العلمي العراقي ، ذكراً لاصابة ابن خلدون بمرض يظهر أنه مرض في المفاصل ويرجح انه التهاب المفاصل شبه الرثوي Rheumatoid Arthritis .

قال المقريزي : (وتردد أبو زيد في مفاوز العرب وحل بحللهم واختلط بجملتهم في باديتهم متصرفاً أحياناً في مهمات السلطان وآونة في الاقامة مع أهله وولده إلى أوّل سنة أربع وسبعين (٧٧٤ هـ = ١٣٧٢ م) فاستدعاه السلطان عبدالعزيز صاحب المغرب من بسكرة إلى القدوم إلى حضرة ملكه بمدينة فاس ، فخرج من بسكرة يؤم دار الملك فاس فأصابته بطريقه شدّة أذهبت المال حتى بقي عارياً يومين في البرد . ومن حينئذٍ حدث له وجع في أعضائه ما برح يتألم منها حتى مات . وكادت هذه الشدة تأتي على النفس لو لا لطف الله

وجميل صنعه . ومات السلطان عبد العزيز قبل قدومه عليه فدخل فاس في جمادي من سنة أربع وسبعين ...) .

ويقول المقريزي في محل آخر من الترجمة (ومات وهو قاض موتاً وحياً من غير تقدم مرض سوى أنه ثار به ما كان يعتريه من وجع الأعصاب في يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر رمضان سنة ثمان وثماني مائة (١٤٠٥/٣/١٧ م) أحوج ما كان إلى الموت ، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر ، وله من العمر ست وسبعون سنة وخمسة وعشرون يوماً رحمه الله) .

ويظهر من هذا ان ابن خلدون أصيب بمرض المفاصل وعمره ٤٢ سنة وتوفي بعد ذلك بأربع وثلاثين سنة ، وان هذا المرض كان ينتابه طوال هذه المدة وانه توفي بعد أن ثار به المرض، ولا بد أن يكون رافقه عارض آخر كان السبب المباشر للوفاة ، إذ يروي السخاوي (ج ٤ ص ١٤٦) انه مات فجأة ، لأن مرض المفاصل هذا لايسبب الموت فجأة . وان المرض المزمن جعل المقريزي يقول عن ابن خلدون انه مات أحوج ما كان إلى الموت .

والمعروف ان مرض المفاصل شبه الرثوي يبقى سنوات عديدة وان فيه نوبات تشتد فيها الآلام . والذي يجعلنا نميل إلى هذا التشخيص ان طبيعة ابن خلدون كما ظهرت من ترجمته لنفسه ومما كتبه الآخرون عنه (السخاوي وابن حجر العسقلاني) من الطبائع التي لها استعداد لهذا النوع من المرض إذ أنه يصيب الناس القلقين وذوي المشاكل ، ويمكن ادخاله ضمن الأمراض الجسمية النفسية Psycho-somatic .

ولنذكر ما كتبه ابن خلدون نفسه عن هذه الحادثة وان لم يشر إلى ما أصابه من مرض بعدها (التعريف بابن خلدون ص ٢١٦ و ٢١٨) :

(ولما كنت في الاعتمال في مشايعة السلطان عبد العزيز ملك المغرب ... وأنا مقيم ببسكرة ... فاستدعاني . . وارتحلت من بسكرة بالأهل والولد في يوم المولد الكريم سنة

أربع وسبعين متوجهاً إلى السلطان ، وكان قد طرقه المرض ، فما هو الاّ ان وصلت مليانة من أعمال المغرب الأوسط فلقيني هنالك خبر وفاته ... وارتحلنا جميعاً إلى المغرب عن طريق الصحراء . وكان أبو حمو (أبو حمو صاحب تلمسان وكان بينه وبين السلطان عبد العزيز خصام) قد رجع بعد مهلك السلطان من مكان انتباذه في تيگورارين إلى تلمسان فاستولى عليها وعلى سائر أعماله ، فأوعز الى بني يَغمور من شيوخ عبيد الله من المعقل أن يعترضونا بحدود بلادهم من رأس العين مَخْرج وادي زا ، فاعترضونا هنالك ، فنجا من نجا منّا على خيولهم إلى جبل دبدو . وانتهبوا جميع ما كان معنا ، وأرجلوا الكثير من الفرسان وكنت فيهم ، وبقيت يومين في قفره ضاحياً عارياً إلى أن خلصتُ الى العمران ولحقت بأصحابي بجبل دبدو ... ثم سرنا إلى فاس ووفدت على الوزير أبي بكر وابن عمه محمد ابن عثمان بفاس في جُمادى من السنة ...) .

ولدى تحويل التاريخ الهجري القمري إلى الشمسي ظهر ان الحادثة وقعت بين منتصف ايلول ونهاية تشرين الأول ١٣٧٢ م ، وطبيعة البلاد آنذاك قاسية ، برد قارص في الليل . وقد بدأ المرض كما يروي المقريزي قبل أن يبدأ ابن خلدون بكتابة مقدمته ، التي كتبها عند انقطاعه في قلعة ابن سلامة لمدة أربعة أعوام من سنة ٧٧٦ هـ إلى سنة ٧٨٠ هـ (أنظر التعريف بابن خلدون ص ٢٢٦ـ٢٢٩) وقد كتب المقدمة في النصف الاول من سنة ٧٧٩ هـ . وان ما يهمنا في هذا المجال ان ابن خلدون بدأ بتأليف الكتاب والمقدمة بعد اصابته بمرض المفاصل سنة ٧٧٤ هـ كما يروي المقريزي ، كما انه نقّح المقدمة والكتاب وأضاف اليها بعد ذلك كما يتبين من النسخ المختلفة المتعاقبة ، ويظهر ذلك جلياً في المقارنات التي اجراها عبد الرحمن بدوي في كتاب مؤلفات ابن خلدون .

ويظهر أنه عند ما كان يشتد الألم على ابن خلدون كان يقسو في عباراته وأحكامه على الذين كانوا سبباً مباشراً باصابته بهذا المرض ـ وكان الناس آنذاك يعطون أهمية كبيرة للعوامل

الخارجية في تسبيب الأمراض . وربما نجد في مرض ابن خلدون تعليلاً لقسوته على (العرب) وهو يقصد بهم الأعراب ، وهم الذين هاجموه في الطريق ونهبوا ما معه فبقي يومين في القفر قبل أن يلحق بأصحابه .

رحم الله ابن خلدون لقد كان من اعاظم المفكرين على مر العصور .

تموز ١٩٦٥ الدكتور محمود الجليلي

المراجع :

١ — ابن حجر العسقلاني ـ رفع الاصر عن قضاة مصر ـ نشر ترجمة ابن خلدون منه عبد الرحمن بدوي في مؤلفات ابن خلدون .

٢ — ابن خلدون ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ـ نشره محمد بن تاويت الطنجي ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م .

٣ — السخاوي ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ـ الجزء الرابع ص ١٤٦ ـ طبعة القاهرة ١٣٥٤ هـ .

٤ — عبد الرحمن بدوي ـ مؤلفات ابن خلدون ـ منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ـ القاهرة ١٩٦٢ م .

٥ — المقريزي ـ درر العقود الفريدة في تراجم الأعيـــان المفيدة ـ الجزء الثاني ـ مخطوط ، نشرت ترجمة ابن خلدون منه في مجلة المجمع العلمي العراقي ـ المجلد الثالث عشر ، صفحة ٢١٥ ـ ٢٤٤ ـ بغداد ١٩٦٥ م .